حكاية إيماني

نقولا زيادة *

1

كنا نعيش في دمشق، في الميدان التحتاني (حيث ولدت في 2 كانون الأول/ ديسمبر 1907م). أحسب أنني كنت في أواخر الخامسة أو بدء السادسة من عمري، لما أرسلت إلى المدرسة. كانت مدرسة الفرير، التابعة لمؤسسة الفرير الكاثوليكية.

في صبيحة كل يوم كان الاجتماع الأول للتلاميذ، ومدته نصف ساعة، مخصصاً للصلاة في كنيسة المدرسة، كنا نبدأ ذلك بكلمات "بسم الله الحيّ السرمدي" يتلو ذلك مشاركة التلاميذ الأكبر مني سنّا في تلاوة صلاة، تعلمت مع الوقت نصها وهي:

"أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك لتكن مشيئتك..". وأنا لم أفهم معنى باسم الله الحي السرمدي (إلا من حيث هي معنى غائم هو الذي استطعت أن أتصوره. لكن لا أذكر الصورة) لذلك كان أحرى ألا أفهم معاني كل هذه الكلمات المتعاقبة في الصلاة الربانية، كما كان الخوري يسميها. لكنني حفظتها (فأنا قوي الذاكرة).

ثم جاء دور شيء أطول وأكثر تعقيداً كما رأيت من توالي الكلمات والجمل وهو "قانون الإيمان" (نصه طويل فلن أشغل مكانا لنقله) مع ذلك ومع توالي الوقت حفظته.

كان أبي يجيد اللغة العربية وكان ماهراً في الحساب، فكان يساعدني في كتاب مدارج القراء لجرجس همام، وكان يعينني في مسائل الحساب. ولما طلبت منه أن يساعدني في فهم "أبانا الذي..." قال لي هذه صعبة عليك الآن، وستفهمها بعد سنين. لم يكن هنا "بعد سنين" ليعينني (فقد توفي سنة 1915م).

وكان فيما حفظناه الوصايا العشر، اللطيف فيها أنها كلها تبدأ بالنفي: لا تكن لك آلهة سواي، لا تقتل، لا تسرق... إلخ.

وقد قال لنا الخوري (وهو الذي كان يعلمنا اللغة العربية أيضا): "الآن صرتم مسيحيين حقيقيين فأنتم تعرفون" أبانا الذي في السموات..."وبعض أجزاء من قانون الإيمان والوصايا العشر".

أنا واثق أنني لم أفهم العلاقة بأنني "صرت" مسيحيا بسبب هذه الأمور. فأنا أعرف أن أبي وأمي كانا ينتسبان إلى طائفة الروم الأرثوذكس دون أن أفهم معنى ذلك طبعا، ولأنني ولدت في يوم قريب من عيد "القديس نقولاوس"، فقد سميت نقولا للبركة، وكنت أعرف بطبيعة الحال أننا كنا مسيحيين.

اضطررنا إلى تبديل دار السكن، فتبدلت على المدرسة. أولا كانت معلمات تتولى شؤون تعليمنا- لغة عربية وحساب. والمدرسة كانت بروتستانتية (ولم أدر ما معنى ذلك، لكنني عرفت أنها مُدَرِّسة مسيحية).

كان في برامجنا مرات في الأسبوع، لا أذكر عددها، للتعليم المسيحي. "أبانا الذي..." والوصايا العشر ومحاولة تعليمنا "قانون الإيمان" في محاولة جدية من ناحية المعلمة لتحفيظنا إياه(أمر يسير) وتفسير معناه (لا آمل..). وإصرار أبي على أن هذا للمستقبل(لما تكبر يا نقولا).

فضلا عن ذلك أخذت المعلمة تقصّ علينا قصصا، "قصص الكتاب المقدس". القصة كانت أيسر فهما وأكثر تشويقاً، ولو أن أموراً كثيرة من أجزائها الإيمانية لم أنتبه لها أو لم أهتم بها.

القصة الأولى "الله خلق العالم في ستة أيام واستراح في اليوم السابع" المهم لي ما معنى "الله"، بل هذه الطريقة العجيبة في أن يتم كل شيء من السماوات والشمس والكواكب إلى بقول الحقل- وعلى رأس هذا كله الأب الأول للبشرية آدم. واستتبع ذلك قصة الجنة لآدم وحواء، ومخالفة هذين (المجرمَيْن) أوامر الله، كي يطردا من الجنة السماوية فيلقيا صعوبات ومشكلات في المعيشة. الذي فهمته أن الله خلق كل شيء، وجميع المكافآت والمشكلات على نحو كامل. إن الله هذا حري بأن يُحْتَرَم. لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد. ذلك أن البشر، مع الزمن، امتلكتهم خصومات وشرور وآثام، وعصوا أوامر الله، فأهلكهم الله جميعا. هذه قصة الطوفان. نوح هو الوحيد الذي وجده الله مؤمنا يسلك سبيل الخير. فأختاره لينقذ البشرية عن طريقه فأدخله فلكا بناه هو بالأمر المطاع، وأدخل فيه زوجا من كل الأجناس الحية. وهطلت الأمطار أربعين يوما وأربعين ليلة. زال بنو البشر الشريرون، وخرج نوح ليكون الأب الثاني للبشرية.

وعمل هذا الإنسان الجديد فترة قصيرة بروح الطاعة، لكن كانت ثمة فئات تصنع شرا. أراد الله أن يعلم الناس أمثولة فأرسلت نيران الجحيم على سدوم وعمورة(على الساحل الجنوبي للبحر الميت) فأحرقت الزرع والضرع، ولكن لوطاً نجا بأمر من الله.

وإلى هذه كان ثمة عشرات من قصص الكتاب المقدس. إذ إن الأمر وصل إلى العهد الجديد من هذا الكتاب. فكان ثمة جميع القصص والحكايات المتعلقة بميلاد السيد المسيح وتبشيره والقبض عليه ومحاكمته والحكم بتعليقه على الصليب لأنه خالف ما جاء على لسان الأنبياء القدماء(القصص الوارد ذكرها سابقا وهي من العهد القديم من الكتاب المقدس).

هنا كانت مختارات من تعاليم السيد المسيح موضع حفظ يضاف إلى "لا إله إلا هو الحي السرمدي" "وأبانا"...إلخ.

هذه الأشياء عُلمتها وسمعتها وحفظتها في المدرستين اللتين أشرت إليهما.

كنت في أوائل السنة الثامنة من عمري لما توفي أبي، وعُدْنا -أمي وأربعة أطفال أنا الأكبر سنًّا فيهم، إلى الناصرة- موطن أبويّ الأصلي. كان ذلك في مطلع سنة 1916م.

3

بين سنتي 1916 و1921م عشت بضعة شهور مع خالي في طولكرم(مساعدة لأمي). ذهبت هناك إلى مدرسة رسمية من مدارس الحكومة التركية. لكن لم يكن هناك درس تعليم مسيحي أبداً. مات خالي.

وعدت إلى الناصرة بضعة شهور ثم إنتقلنا إلى جنين -لكن كانت المدرسة الرسمية مقفلة، فكانت مدرستنا- أنا وأولاد من جيلي – شارع جنين الرئيسي وأزقتها وبساتينها والسهول والهضاب المحيطة بها.

في شتاء 1918-1919م(وكانت الحرب العالمية الأولى قد انتهت) أصبحت جنين والناصرة وطولكرم ونابلس والقدس ويافا وغزة وما إليها مناطق من دولة جديدة اسمها فلسطين في عهدة إدارة بريطانية عسكرية. وبدأت الحكومة الاهتمام بفتح المدارس، ففتحت المدرسة ودخلناها- كنا خليطاً غريباً من أبناء جنين وقراها وأولاد موظفين أو تجار جاؤوا البلدة للعمل. وكنا مختلفي الأعمار.

قضيت في المدرسة سنوات ثلاث، لا أنوي أن أتحدث عن المعلمين الذين لم يكونوا أقل خليطاً من التلاميذ. لكنني أشير إلى أمرين: الأول أنني حضرت خلال سنتين دروس الدين الإسلامي، وكان المعلم الشيخ سعيد مرعي(لم أحضر في السنة الثالثة لأن الشيخ سعيداً ترك المدرسة) وقد تعلمت في هاتين السنتين مبادئ الإسلام وعباراته وفروضه كما حفظت الكثير من سور القرآن الكريم القصيرة ومن آيات كريمة أخرى اقتضاها تفسير الدرس أحيانا.

ثم خطر ببال المعلم ج.خ. أن يعلم التلاميذ المسيحيين تعاليم دينهم. كان يجمعنا يوم الجمعة في المدرسة(وكنا كمشة عرب كما يقولون) ج.خ. كان أرثوذكسياً متحمساً للمسيحية الأرثوذكسية. شدّد في دروسه على الأمور المتعلقة بالمسيحية -ولادة السيد المسيح حتى صلبه- في الدرجة الأولى. وكان يُعنى أيضا بتفسير "أبانا الذي" و "الوصايا العشر" وما تبقى من هذه الشؤون. وكان يتحدث عن هذه الأمور بحرارة إيمان أصابتني عدوى منها. لكن لم أكن قد بلغت بعد السن التي تمكنني من فهم أي شيء. لكن ج.خ. أوقد شعلة الإيمان بسبب حماسته. لم أكن أعرف حتى تلك الأيام أن في المسيحية مذاهب. لكن التلاميذ العشرة الذين كانوا يحضرون درس ج.خ. كان بينهم الأرثوذكسي، والروم الكاثوليكي، واللاتيني، والماروني، والبروتستانتي. وكم كانت دهشتي كبيرة واستغرابي أكبر لمثل هذا الأمر الذي لم أفهمه.

لما نجحت في إمتحان الدخول إلى دار المعلمين بالقدس صيف 1921م عرف ج.خ. ذلك ولما اقترب موعد سفري قال: "يا نقولا- حافظ على أرثوذكسيتك. أنت تعرف الآن كل التعاليم المسيحية الأساسية، هذه ستفهمها في المستقبل، وعندك الإيمان المسيحي هذا سيتقوّى في السنين القادمة. يا حبيبي، حفظك الله".

لما دخلت دار المعلمين طالبا داخليا في أيلول/ سبتمبر 1921م كنت أحمل جعبة فيها ثيابي، وأخرى وهي رأسي وقلبي حيث تسكن التعاليم المسيحية والإيمان. أما ما عرفته من الأمور الإسلامية، فقد كانت بالنسبة لي، معرفة ومعلومات لا علاقة لها بالإيمان.

حسبت أنني قد يتم لي فهمٌ ولو جزئيا لبعض التعاليم. لكن ذلك لم يحصل. لم تكن دروس تعليم مسيحي، وحضوري الصلوات في الآحاد وعيد الميلاد وعيد الفصح وفيه صلب المسيح، لعله، كما تنبأ ج.خ، زادا إيماني لكنه لم يزد معرفتي.

إلا أن شيئا عكس ذلك حدث لي. في السنة النهائية لنا في الدار (1923-1924م). كان ج.خ. يدرس لنا الأدب العربي، ومررنا بأبي العلاء المعري. وأعجبتني قصيدته "غير مجد..." حفظتها وكنت أردد أبياتها. في يوم من الأيام توقفت عند البيت:

صاح هذي قبورُنا تملأُ الرحبَ فأين القبور من عهد عادِ؟

استفهامية البيت هي التي لفتتني، وأصبح الأمر إشكالا عندي. فأبو العلاء يتساءل عن القبور من عهد عاد. وقد توقف عند عاد لقدم القبيلة أولاً وبسبب قافية القصيدة ثانيا. لكن لماذا يسأل عن القبور الأخرى. خطر لي، ولست والله أدري كيف تمّ ذلك أن الرجل يتساءل لا عن القبور وساكنيها ولكن عن القول بالبعث! كيف يمكن أن يُبْعث هؤلاء البشر الذين لا يحصى عددهم يوم القيامة ليحاسبوا على أعمالهم.

فالجنة للمتقين، ونار الله الموقدة لمخالفي هذه التعاليم. طبعا أنا داخلني الشك على أساس عقيدتي يومها. أنكر على ج.خ. هذا الشك وقال: أبو العلاء شاعر مؤمن، فلا تحمّله وزر الشكّ! لم أقتنع. لكنني أخشى أن يغضب عليّ إيماني ويعاقبني على ذلك. فكنت أشك وأنا حريص ألاَّ تبدو مني إشارة تلمِّحُ إلى ذلك.

تخرجت من دار المعلمين وعملت سنة مدرسية في قرية ترشيحا (قضاء عكا)، ثم نقلت إلى المدرسة الثانوية في عكا، حيث عملت من 1925 إلى 1935م.

الشك يلازمني على حذر وخوف من إيماني. لكن ليس ثمة مجال لتفهم ماهية هذا الشك. عهد إلي في عكا تدريس التاريخ القديم على المستوى الثانوي. كان علي أن أتعلم ذلك كي أعلّمه(في أول سنتين كنت أتعلم الدرس مساء كي أعلمه صباح اليوم الثاني). البدء بدراسة التاريخ القديم لمنطقتنا قادني تدريجاً إلى التعرف على أساطير الأولين. الأساطير التي كانت تسمى بابلية(نسبة إلى الدولة البابلية) وهي الدولة التي قامت في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد وفي أيامها دُوّنت هذه الأساطير بلغة سامية لكنها هي أصلا

سومريّـة تداولها السومريون في العراق في الألفين الخامس والرابع ق.م. كشف عنها في آجرات بابلية، ونشـرت نصوصها ثم ترجمت إلى اللغات الأوروبية المعنية بلادها بتحري هذه الدراسات.

كان كنغ (King) أحد كبار العاملين في هذا الحقل يومها قد نقل بعض هذه الأساطير إلى الإنكليزية سنة 1906م(أنا أتحدث عن سنة 1927م وما بعدها) قرأتها. خشيت أن أكون في حلم أو في إغماءة. لكن الأمر غير واضح. أسطورة بابلية عن الخليقة تبدو أنها الأصل لقصص الكتاب المقدس عن الخليقة. رواية الطوفان موجودة تفاصيلها في قصة غلغامش. الفرق أن الذي نجا من الطوفان السومري سمح له أن يعيش أبدا. فلا يموت كما مات نوح. هذا النوع من الحياة كان مسموحا به في أيام السومريين، لكنّ "نوحاً" لم يكن يسمح له بذلك؛ لأن الله خلقه. فالخلق الإلهي يعطي المرء الحق في حياة محدودة.

ولكن لماذا يسمح للذي نجا من طوفان السومريين أن يمنح حياة أبدية؟ ومن منحه إياها؟

هذه الأمور التي يعثر عليها المرء في هذه الأساطير لها روابط متعددة؛ فالآلهة المتعددة قد تكون لها نظرات متباينة على ما تبدو لنا نحن المؤمنين. فهذا الناجي من الطوفان القديم والذي أعطي حق الحياة الأبدية، وتمتع بها على ما تذهب الاسطورة، يقابله في أسطورة ثانية قصة أبانا الذي ركب حيواناً اسطوريًّا قويَاً وأخذ يسوقه نحو السماء –نحو الآلهة- كي يمنح الحياة الأبدية، تحول الآلهة بينه وبين أمله؛ لأن الحياة الأبدية لم تُعْطَ للبشرية، بل للآلهة.

وأسطورة برج بابل تمثل هذا الشوق البشري للوصول إلى فوق! ذلك بأن الذين تشملهم هذه الأسطورة عدد كبير من البشر قرروا أن يبنوا برجاً مرتفعاً يمكنهم من الوصول إلى مظان الآلهة، ليحصلوا على شيء لا- تسمح به الآلهة – ولم يسمح به إله العهد القديم "يهْوَه". لذلك لجأت الآلهة إلى طريقة مبتكرة كي يعجز القوم عن إتمام هذا البرج، وعندئذ تفرق القوم أيديَ سبأ. ما هي الطريقة المبتكرة. حمل الآلهة القوم على التكلم بلغات مختلفة فلم يعد بإمكانهم أن يتفاهموا على العمل.

ولما نقلت هذه الأسطورة لتصبح قصة في الكتاب المقدس(العهد القديم) لم تغيّر كثيراً من غاية القوم ومحاولتهم الوصول إلى حيث يقيم يهوه أو إلى أقرب درجة منه. لكن لم تقل القصة المقدسة أن يهوه حال دون رغبتهم. لا- لم تجد الصبغة الجديدة(الدينية إذا شئتم) سوى ما قام به آلهة القدامى للحيلولة دون نيلهم الأماني. حلت عليهم بنعمة الروح القدس(طبعا) شبه لعنة إذ أصبحوا يتكلمون لغات متعددة، فلم يعد الواحد يفهم ما يقال له. فعجزوا عن إتمام البناء.

في هذا الذي أشرنا إليه، والذي لا يعدو أمثلة من عشرات من الأحداث لها سبيل واحد. يحل الإيمان بيهوه، على أنه إله العالم الوحيد، مكان الآلهة المتعددة، لكنه يلجأ إلى الوسيلة نفسها. فالتفكير البشري لم يكن قد تقدم بما فيه الكفاية ليضع أسباباً أخرى وعوامل مختلفة

عن الأولى.

لكن عندما نسير مع تطور البشرية هل نجد أن التعليل السماوي قد تبدل كثيرا خلال الألفين أو أكثر من السنين؟

لا أستطيع الإجابة. ولكنني أثير المشكلة. وكم مر على البشرية من أيام تثار فيها المشكلة الواحدة ويظن المؤمنون أن الحلول متباينة، ولكن عند البحث الدقيق في الخيوط التي تربط الماضي بالحاضر، نجد أن الذي تغير هو الشكل أو التعبير أو اختلاق النبرة أو ارتفاع درجات المكافأة والعقوبة، أو على الأقل كان توضيحها يختلف.

أطلت القول، لكن هذا الأمر يدخل في صلب دراساتي واهتماماتي لتوضيح الحركة التاريخية لي، لنقلها إلى القراء.

فأنا، شخصيا، أصبح هذا الإيمان الذي أشرت إليه جزءا من كياني النفسي والشعوري والفكري، وهي أمور يحسب الناس أنها أمور مفترقة تدخل العقول والقلوب. لكن الذين يرون ذلك لا أحسب أنهم يدركون تماما ما يجري في رؤوسهم وقلوبهم.

4

هنا أخذ الشك يتقوى فلم يعد يخشى سلطة الإيمان. وأخذ الشك "المعري" يتقوى.

الأسطورة القديمة -ولم يعد اسمها قصة الكتاب المقدس- تعلّل وجود آلهة كثيرة تملأ الفضاء. آلهة للخلق وآلهة للتدمير -آلهة للخير وآلهة للشر- آلهة للحب وأخرى للكره والبغض- آلهة للبناء وأخرى للهدم. لكن هذه الآلهة المتعددة كان لها إله يتولى رئاستها. كان اسم هذا الإله عند السومريين "إنْليل"، وهو إله الرياح والزوابع وهو إله مدينة نيبور "نيفار"، فصار اسمه البابلي مردوخ. اقتتل كبير آلهة الخير مع كبير آلهِة الشر. قُدَّت آلهة الشر "تيامات" نصفين قدها مردوخ بضربة واحدة فكان من الواحد الجَلد أي السماء ومن الآخر الأرض.

ونعم الآلهة بمراتبهم ومناصبهم وحرياتهم وحدودها. لكنهم كانوا بحاجة إلى بشر يعبدونهم فجاء مردوخ بدم زوج تيامات الذي قتل في الحرب، ومزجه ببعض التراب وخلق الإنسان.

وهكذا كنا نَحْلقُ فانتقلنا إلى خَلْعِ الاضراس.

كل ما حملني إياه ج.خ. من إيمان مبني على قصص الكتاب المقدس انهار أمام ما يمكن أن يسمى التفسير الأسطوري لخلق العالم. ظل منه ما يتعلق بالمسيحية من حيث إن المسيح هو الذي بشّر بها. لكن حتى هذا كان بحاجة إلى توضيح. وعندها عكفت على قراءة "العهد الجديد من الكتاب المقدس". قراءة ودرساً وتفسيراً من كتب للاهوتيين كبار، ومن الاهتمام برسائل القديسين المسيحيين. وأخذ شكل الشك يتنامى ورسم الإيمان التقليدي يَمَّحي تدريجيا. لكن الذي بقي هو إيمان بقدرة خلاقة بالمبادئ الخلقية التي كانت نمت مع

الإيمـان أصــلا. كيـف يعيش الفرع فيمـا الأصـل يتهـاوى؟ لـم أدر يومهـا، لكن مـع الوقت أدركت أن هذا الذي عاش هو الأصل!

5

وقد بذلت جهدا كبيرا في محاولة لفهم هذه الأسس للإيمان: الله الحي السرمدي: أبانا الذي في السموات، قانون الإيمان.

لجـأت إلى كتـب لاهوتيـة مختلفـة المـؤلفين والكتّـاب والبـاحثين. لكنني لم أفهم المقصود الروحي أي الإيمان. فهمت "من أبانا" التي أحفظ كلماتها وجُمَلها لكنني لم أستطع أن أتقدم في فهم العلاقـة بين مـا تحمله أجزاء "أبانـا" من معانٍ تربط الأب بالابن وبالروح القدس. ظـل فهمي لهـا فهمـاً جزئيـا. لكـن لـم يصـل إلى درجــة الفهـم أو الإدراك الترابطي بين عناصره.

ولم يكن موقفي من قانون الإيمان أيسر من موقفي "من أبانا..."

كـان أيسـر أن أفهـم مـا تطلبـه الكنيسـة مـن تصـرف بحسب المفهـوم المسـيحي- الصـلاة والصوم وتناول القربان. لكن هذه لم تفسر ولم تلتحم بالأمور الواردة في "أبانا" و "قانون الإيمان". ظل هناك شـيء هو إيمان بقوة تـدير هذا الكون وتصـرف شؤونه لكنها لا ترسم لكل شخص في الحياة سيرته على الأرض من أولها إلى آخرها.

لما عنيت بـدرس الفلسـفة اليونانيـة مع الـدكتور كيتنغ(في جامعة لندن) أدركت الارتباط العضوي بين بعض هذه الأسس المسيحية والفلسفة اليونانية الأمر الذي لم يكن منه مناص.

لكـن هـذه المعرفـة الـتي تمت مـع الأيـام ظلت معرفـة في نطـاق الفكر والتطور الفكري للمسيحية على ما يتضح من قراءة الآباء الأوَل من القرن الرابع وما بعد.

وهـذه المعرفـة لـم تُـثر في نفســي شـكوكاً ولا- مشـكلات. كـانت فصـلاً آخر من فصول تطوري الفكري المنطقي العـام. وهـذا الفكر الـذي ينمو معي وأنمو معه، لا- تثير أي عقدة في نفسي لأنني لا أقبل الإيمان الذي تشرحه الكنيسة لأنني لا أفهمه.

هـذا الإيمان أدخل الكثير من الهـدوء إلى نفسـي. ولا يزال يتفاعل في أعماق هذه النفس. إلا- أنه ظـل في نفسـي شـيء يسائلهـا ويسائـل المنطق والتاريـخ. السيد المسيح وهو يقوم بالتبشـير بالـدعوة الجديدة التي حملت اسمه فيما بعد(المسـيحية) لم يُدوَّن شـيء عن حياته يومها والأناجيل الأربعة المقدسة التي دونت تفاصيل حياته ودَوّنت تعاليمه كتب ثلاثة منها متى ومرقس ولوقا في سبعينات أو ثمانينات القرن الأول الميلادي، والرابع، إنجيل يوحنا، يعود تـدوينه إلى أوائل القرن الثاني الميلادي. فهي روايات، صـحيح أنها قريبة من أيامه، لكن الذين وضعوها لم يعاصروه. والصلاة الربانية أي "الأبانا"، في الواقع مما اتفق عليه اللاهوتيون حتى بعد ذلك بمـدة طويلة، ويبدو من هذا أن رواية الأناجيل تعرّضت فيما بعد لإضافات. هذا لم يبدل موقفي من القضايا التي دار تفكيري حولها، طوال تلك السنوات.

ولما قرأت شيئا عن علاقة الدين(الإيمان) بالعلم وعن التنافر القائم بينهما، جاء السير أوليفر لودج (sir Oliver Lodge)، وكان من كبار علماء الفلك في النصف الأول من القرن العشرين، يقول: إنه وهو العالم في العلم الرياضي مؤمن بما تدعو إليه المسيحية، وإنه ليس ثمة خلاف بين العلم والدين. لكن لودج كان قد فقد ابنه الوحيد في الحرب العالمية الأولى، وكان يحبه حبًّا شديداً، وكان يؤمن بوجود أرواح الموتى في الفضاء الواسع، بل كان يجهد في التحدث إليه(التحدث إلى الموتى قضية مهمة كانت ولا تزال) وقد تم له ذلك على ما توَهَّم.

ولما ذهبت إلى لندن لطلب المزيد من التاريخ (1935-1939م) أملت أن أحصل هناك على بعض الأجوبة. ولكن الذي توصلت إليه، بعد قراءات متعددة وأحاديث كثيرة هو أن القضية تشغل الناس، ويكتبون فيها ويتفلسفون ويفلسفونها. لكن ليس ثمة نتيجة قاطعة.

عندها، وكان ذلك قبل نحو ستين سنة، عدت إلى الإيمان الذي وقفت عنده. ولا أزال. أقرأ الكثير، وأدير الأمر على نواح مختلفة وأعود إلى هذا الإيمان البسيط الهادئ الذي يسعفني عندما تعصف الآراء وتقوم الدنيا وتقعد، بسبب يحسب صاحبه أنه حل المشكلة. ولكن لا حل. والإيمان الهادئ هو السبيل الوحيد.

في صيف 2002م طلب مني أن أتحدث عن كتاب هيفاء اليافي "اليوم يأتي غدا". قلت لما جاء دوري:

أنا مسيحي أرثوذكسي، لكن أرثوذكسيتي لا- تتقيد بالشروح والتعاليم التي تقول بها الكنيسة. فأنا مؤمن بقوة لا أدركها ولا أفهمها، ولذلك فقد ظل في قلبي ونفسي قُرَنٌ صغيرة تسكنها آلهة اليونان التي كانت للحب والكره والخير والشر، وكل ما يمكن أن يحس به الإنسان. ومن هنا فإنني أستطيع أن أستسيغ كتابا فيه زوايا لا يجوز طرقها.

****

*) أديب وكاتب من لبنان.